صورة الجزائري في الشعر العراقي الحديث. مقاربة سيميائية من خلال كتاب (الثورة الجزائرية في الشعر العراقي) لعثمان سعدي

عبد المالك ضيف

قسم اللغة والأدب العربي

جامعة المسيلة

ملخص

يدخل بحثنا هذا في إطار الدراسات النقدية التي تحاول التعامل مع النص وجها لوجه من خلال معايير النقد السيميائي المعاصر. نسعى من خلاله إلى تأسيس رؤية نقدية مؤسسة على جملة العلاقات النصية التي تحوي مجموع العلامات. وسنحاول تحليل النص الشعري وفق مفاهيم النقد السيميائي الذي يتتبع آثار المعنى العميق في ضوء السياق الذي يسمح لنا بمعرفة ملابسات المحتوى اللساني في تفاعله مع المحتوى الاجتماعي، والثقافي، والتاريخي لاستجلاء معاني الشجاعة والبسالة الجزائرية.

الكلمات المفاتيح: الجزائري، سيميائية، النص، العلامات، العلاقات، السياق.

Résumé

*Notre article intitulé : **" L'image de l'algérien dans la poésie iraquienne moderne. Approche sémiotique à travers le livre : la révolution algérienne dans la poésie iraquienne"** de **Othman Saadi**, tend vers les constructions d'une vision critique des relations textuelles qui se manifestent à travers l'ensemble de signes. Notre objectif est d'analyser le texte poétique selon les concepts sémiotiques qui ciblent le sens profond, sans oublier le contexte qui nous a permis de connaître les circonstances du contenu linguistique dans son interaction avec le contenu social, le patrimoine culturel, et historique.*

Mots clés : Algérien, sémiotique, texte, signes, relations, contexte.

Abstract

Our article entitled: "The Algerian image in the iraqi contemporary poetry", is a semiotic approach through a book « The Algerian revolution in the iraqi poetry» by Othman Saâdi. It tends to establish a semiotic critical view that is based on a set of textual relations that contain a set of signs. We attempt to analyse a poem through concepts of semiotic criticism that tracks the deep meaning in the light of the context that enables us to know the linguistic context that interacts with de social, historical and cultural context. In fact, our research is a semiotic study that attempts to deal with a text through criteria of contemporary semiotic criticism to highlight Algerian courage and bravery.

Keywords: Algerian, semiotics, text, signs, relations, context.

توطئة:

على الرغم من بعدنا الزمني عن الفكر اليوناني القديم إلا أنه أنتج كثيرا من النظريات المنطقية والرياضية التي مازال الفكر الحديث ينهل منها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. ومنطق أرسطو(Aristote) خير شاهد على ما نقول: فلقد «استخلص مبادئ العقل التي تحصر الحقيقة في مجال تطابق الفكر مع الواقع على نحو مخالف لفكرة أن الحقيقة متأتية من انسجام الفكر مع نفسه. وهكذا فإن النسقية السيميائية الأرسطية ذات الطبيعة الأنطولوجية تربط العلامات بالعوالم العيانية الفعلية؛ وذلك لأن هذه العلامات تنتظم داخل قوانين الوجود.» [1].

وبمجيء (بيرسC.S.Peirce) [*] ظهرت فرضية العلم الحديث المبني على المنطق المستنبط من تفاصيل الكون، في تفاعل مكوناته، وانتظامها في قوانين محكمة. ووفقا لذلك راح بيرس يتأمل في الوجود بتصور رياضي، وميتافيزيقي. فالتصور الميتافيزيقي يبدأ بالمجرد، وينتهي بالمحسوس. والتصور الرياضي من الصفر إلى ما لا نهاية. وبعد الصفر تأتي مرتبة الأولانية (Primeité)، وهي وجود الشيء في نفسه غير مرتبط بشيء من الأشياء المادية. وحين يتحقق الشيء ويصير في الوجود، فإنه يصير في المرتبة الثانيانية (Secondéité)؛ لأنه مرتبط مع شيء آخر؛ مثل الفعل ورد الفعل، والضغط والمقاومة، والحال مع المحل، والصانع بالمصنوع. ولا يكتسب الموجود هويته، ووظائفه، إلا بانتظامه، وتبنيه من المجتمع الذي يجعل منه عاما ملزما. وهذا يسمى الثالثانية (Tiercéite)[2].

فالتشكيل الثلاثي للعلامة، هو أهم مبدأ أقره بيرس في نظريته، والحديث عن طرحه السيميائي «هو حديث عن تصوره لعملية الإدراك: إدراك الذات وإدراك الآخر، إدراك الأنا وإدراك العالم الذي تتحرك داخله هذه الأنا. وهذا أمر في غاية الوضوح في تصور بورس. فلا شيء يوجد خارج العلامات كقوة للتمثيل، فالتجربة الإنسانية بكامل أبعادها ومظاهرها تشتغل في تصور بورس كمهد للعلامات: لولادتها ونموها وموتها. » [3].

وفي عمومية النظرية البيرسية، التي تنظر إلى الكون بأنه علامة، وكل الموجودات علامات؛ فـ« إن الإنسان علامة وما يحيط به علامة وما ينتجه علامة، وما يتداوله هو أيضا علامة. والخلاصة أن لا شيء يفلت من سلطان العلامة. ولا شيء يمكن أن يشتغل خارج النسق الذي يحدد له حجمه وامتداده وعمقه. كما لا يمكن أن يوجد شيء داخل هذا العالم حرا طليقا يحلق في فضاءات الكون لا تحكمه ضوابط أو حدود ولا يحد من نزواته نسق. » [4].

وفي سياق البعد الثلاثي للعلامة عند بيرس. ينبني الأمر على شكل مقولات تحتمل قوانينها، وتحركاتها في الإدراك، ثم في الواقع، والمقولات الثلاث هي ما يحدد التجربة الإنسانية في مرحلة أولى كنوعيات وأحاسيس(أولانية)، ثم كوقائع وموضوعات(ثانيانية) في مرحلة ثانية، وكقوانين وعادات(ثالثانية) في مرحلة ثالثة. إن التجربة الإنسانية بهذا المعنى، تجربة كلية، وهذه الكلية لا يمكن أن تشتغل بشكل تام إلا من خلال وجود هذه الأبعاد الثلاثة[5]. إضافة إلى هذا، نشير إلى التفريع الثلاثي الذي أقره، وهو: الإيقونة (Icône)، والمؤشر (Indice)، والرمز (Symbole).

والسيميائية تهدف إلى استكشاف المعنى[6]. كما تتحدد السيميائية – بعدّها ماوراء اللغة – من خلال المقارنة مع كونية المعنى الذي يعطى كموضوع للتحليل[7]. وإذا كانت السيميائية هي نظام

تشفيري؛ فهي أكثر من ذلك عملية وصف، ينبغي لها تحديد مستويات التحليل[8].

إن التصور السيميائي الحديث يعطى للعلامة بعدا وجوديا، يتأسس على شبكة من العلاقات، والسياقات التي تتفاعل مع مكونات المكان، والزمان. وعلى هذا الأساس عُدَّ فكر (دو سوير F.De Saussure) اللساني منعرجا حاسما في تحويل مسار الدراسات اللسانية؛ إذ برزت طروحات كثير من اللسانيين التي خرجت إلى منحى آخر، تعمّق البحث في الدلائل الكبرى. وعليه أصبح البحث في المعنى بديلا عن البحث في النسق. وإذا عدنا إلى تصور (دو سوسير) للعلامة اللسانية كحاضنة للدلالة، أمكننا الاستئناس بقوله: « والعلامة اللسانية لا تربط شيئا باسم، بل تصورا بصورة. وهذه الأخيرة ليست الصوت المادي، الذي هو شيء فيزيائي صرف، بل هي الدفع النفسي لذلك الصوت» [9].

وعطفا على ما قاله (رولان بارث Roland Barthes) بخصوص المفهوم الثنائي السوسيري؛ يمكن أن يكون ذلك المفهوم (اللغة / الكلام) له تمركز محوري في فكر سوسير، ويكتسب حداثته بالنسبة إلى ما سبقه من اللسانيات القديمة التي تركز على البعد التاريخي في البحث في أسباب تغيرات النطق [10] . وإذا جئنا إلى الطرح اللساني الذي أقره (دو سوسير)؛ فإن المنحى الدلالي يقوم عنده على أبعاد ثنائية. وقد ضبط الأمر في الاختلاف بين: اللغة/الكلام. الدياكروني/السانكروني. الدال/المدلول...وغير ذلك من الثنائيات.

والدال والمدلول في الاصطلاح السوسيري هما طرفا العلامة. على أن مصطلح علامة في مفردات الحقول المعرفية المختلفة (من علم اللاهوت إلى الطب)، ومن (الإنجيل إلى التحكم الآلي)، هو مصطلح جد غامض، قبل أن يدخل في مفهوم دو سوسير[11].

وتجدر الإشارة إلى أن كلمة سيميائية وسيميولوجية تترادفان[12] أحيانا، وتختلفان عن بعضهما البعض في أحيان أخرى. ولكن (توسان Bernard Toussaint) يرى أن الترادف هو الأصح بينهما، ويقول: و«المصطلحان سيميوتيكا Sémiotic وسيميولوجيا Sémiologie مترادفان الأول من الانجليزية والثاني من االفرنسية. » [13]. علما أن العلم اللساني الحديث قد انطلق من مدرسة (دو سوسير: 1857-1913)، وهناك المدرسة الأخرى التي تزعمها (ساندرس بيرس Peirce 1914-1939) في المنطق، وهما متزامنتان تقريبا. ودو سوسير له مصطلح سيميولوجياSémiologie، والآخر له مصطلح سيميائية Sémiotic . ولكن أثناء الاستعمال النقدي، قد يطغى مصطلح على الآخر. و«لأسباب مختلفة يبدو اليوم مصطلح السيميائية باسطا هيمنته. وتهتم الجمعية الدولية التي انعقد مؤتمرها بميلانو في جوان 1974. والتي تكلم عنها غريماس(Greimas) بالسيميائية وتقصي من مجال اهتمامها السيميولوجية.»[14]. إن السيميائية هي علم النُّظُم الدالة في الطبيعة والمجتمع، وهي قريبة من علم اللغة(Linguistique)، وقد أُصيبت السيميائية كثيرا بالشكلانية (Formalisme)، ومع ذلك فقد كان لها تقاطع كبير مع الفلسفة؛ فالفلسفة تدرس العلاقات بين الكائن والوعي: الكائن الاجتماعي والوعي الاجتماعي[15]. بينما تسعى العلامة السيميائية إلى اكتساب التحوّل الذي يفضي بها إلى أن تصبح (متعال) جديدا ينافس الكثير من الفلسفات في الادعاء بإمكانية تقديم تحليل شمولي لكافة مظاهر الحياة والكون والسلوك[16]. والنظام السيميائي اتخذ عدة مفاهيم وتقعيدات تتفق وتختلف

باختلاف الطروحات الفكرية والمعطيات الحضارية التي تؤسس نظريتها من مبدإ وعي الذات والآخر، والفرد والمجتمع. فلئن كان شارل ساندرس بيرس، وسوسير، ورولان بارث أسسوا لواقع علمي أصبح يمتلك من القواعد والأسس ما يجعله راسخا في حقل العلوم اللسانية والمعارف الإنسانية بشكل عام. فإنه لن يُستثنى من أذهاننا الصراع الذي كان سائدا بين فكرة يطرحها هذا ويتلقاها الآخر، أو يرفضها، أو يكيّفها حسب طرحه. فكل من سوسير وبيرس أكدا على البعد الاجتماعي للعلامة. وأكّد سوسير أيضا على أن الدلائل تعبّر عن أفكار، بينما بيرس لا يبحث عن القصدية أو إرادة الإبلاغ بين المرسل والمتلقي. إن سوسير كان يحيل إلى (دوركايم Durkheim) في فهم البعد الاجتماعي، ولكن ذلك لا يفهم كإطار يحتضن صراعا طبقيا، وإنما يفهم المجتمع بطريقة مثالية كوحدة متناسقة تجمع بين الأفراد[17].

ومن جانب آخر ذهب (رولان بارث Roland Barthes) إلى قلب الاقتراح السوسيري واعتبار أن النظام اللغوي هو الأصل، أما بقية الأنظمة فهي مجرد فروع ليس إلا[18]. وفي ظل هذا الطرح تصبح العلامة اللغوية «بمثابة الوحدة الصغرى المكوّنة للوجود ذاته، إنها البديل للفلسفة والمنطق. وهي أيضا البديل الجديد للمتعالي المطلق، وللعوامل البيولوجية والعضوية والداروينية وللعوامل الاقتصادية في النظرية المادية الجدلية، وللاوعي في نظرية فرويد في التحليل النفسي» [19]. وهكذا، ولكي تتميز الأشياء، ينبغي أن تأخذ مواقعها في الوجود، وترتسم الحدود والخرائط، وجميع المستويات العلائقية. وبينما يسعى الفيلسوف دائما إلى الربط بين مفاهيم فلسفته، يلجأ السيميائي إلى التأليف بين علاماته، وبمعنى آخر نقول: إن الفلسفة تنطلق من المضمون، في حين تنطلق السيميائية من الشكل في فهم الإنسان، وبينما تطمح الفلسفة إلى إيجاد مفتاح الوجود، تسعى السيميائية إلى رسم خارطة الوجود[20].

ويعد غريماس (Greimas)« النص وحده، هو الذي يقدم كل ما يسعى الباحث إليه، ولا خلاص لنا إذا خرجنا على هذا النص»[21]. أما رولان بارث فإنه لا يؤمن بالتحليل البنيوي وحده لأنه قاصر ولا يصل إلى العمق، والتحليل بالنسبة إليه هو إعادة كتابة النص من خلال قراءة ثانية...قراءة لا تتجاوز اللحظة التي يتوقف عندها القارئ. بمعنى أن النص لا يمكن أن يكون مكتملا إلا عند الانتهاء من عملية قراءته[22].

أما كريستيفا (Kristeva) فقد أنشأت لنفسها تصورا سيميائيا منضويا تحت البحث عن طبيعة العلاقة التي تربط بين تصورها، وبين باقي العلوم الأخرى. « وتشكل السيميائيات في الوقت نفسه جزءا من محفل العلوم، لأنها تملك موضوعا خاصا هو صيغ وقوانين الدلالة(المجتمع والفكر). » [23].

وفي خضم العلوم والمعارف، وفي تداخل بعضها مع بعض، وفي مختلف الإحالات الاجتماعية والإيديولوجية، وفي تقاطعها مع التاريخ، ومع الذات يكون « من البديهي إذن أن تعيين النص كجزء من مواضيع المعرفة السيميائية، حركة لا نجهل غلوها وصعوبتها.»[24].

وفي إطار الحضور اللساني الذي ينبني عليه النص، ويسعى إلى ستر المعنى ترى جوليا « أن النص يقترح على السيميائيات إشكالية تخترق صلابة الموضوع الدال المنتوج، ويكثف داخل المنتوج (المتن اللساني الحاضر) سيرورة مزدوجة لإنتاج وتحويل المعنى. في هذه النقطة من مسار التنظير السيميائي يتدخل التحليل النفسي ليمنحه

مفهمة قادرة على الإمساك بالإمكانية المجازية داخل اللسان، وذلك عبر التمييز المجازي. » [25] .

وضمن هذا الإطار، يسعى تحليلنا – في هذا البحث – إلى رصد البنى التركيبية الشعرية، في حدود اختياراتنا للنصوص, ونؤسس منهجنا على عميلة التدليل على الحمولة الدلالية في تفاعل داخل النص مع خارجه السياقي. وارتأينا أن يكون اختيارنا للمدونات – والتي قام الباحث عثمان سعدي بجمعها في كتابه: الثورة الجزائرية في الشعر العراقي.ج2– في سياق ما يثبت البعد الثوري، والانتماء إلى الوطن، والقضية، عبر علامات النص التي تنضوي تحت تشكيل شعري دال.

1- إرهاصات الثورة التحريرية المباركة وأبعادها الحضارية:

لا يحتاج الفرد الجزائري لمن يذكره بأن واقع الوجود الفرنسي لم يكن بريئا، ولم يكن حضاريا مثلما ادعته وروجت له في إعلامها، وفي أدبيـاتها. إن « الفرنسيين لم يكتفوا بهزيمة، ونفي، وتشريد البورجوازية الوطنية، بل ضموا الجزائر نفسها إلى فرنسا بقرار تعسفي سنة 1834. وهكذا فقد نتج عن هذا القرار المحو التام للكيان الجزائري مع كل ما تستلزمه هذه السياسة من نتائج: محو اللغة، والتاريخ، والحكومة، والرموز الوطنية الأخرى.»[26].

وقد علل الشاعر المصري الكبير (أحمد شوقي) نتائج المحو بطريقة استهزائية عندما زار الجزائر في بداية القرن العشرين، حيث مكث أربعين يوما للاستشفاء، وحينها قال: « ولا عيب فيها[ويقصد الجزائر] سوى أنها قد مسخت مسخا. فقد عهدت مساح الأحذية فيها يستنكف النطق بالعربية. وإذا خاطبته بها، لا يجيبك إلا بالفرنسوية»[27].

وكذلك الأمر في ما نشره الكاتب المصري (سلامة موسى) سنة 1930، بعدما زار الجزائر: إننا لا نجد في الجزائر أية حركة وطنية[*]، بينما نجد في الهند نهضة للاستقلال هي غاية في القوة. وذلك لأن الفرنسيين قتلوا الروح الوطنية في الجزائر بمقاومة اللغة [28]. وكانت المسيرة صعبة، ولم يكن في وسع الفرنسيين أن يحققوا مزاعمهم، ولم يكن في وسع الجزائريين التخلي عن مقومات شخصيتهم، وما يزخر به وجدانهم من مآثر الكرامة، والاعتزاز بالنفس؛ إذ « بعد استسلام الأمير عبد القادر، قال الجزائريون للجنرال (لامورسيير Louis Juchault Lamoricière) بأن" فرنسا ستمضي قدما، ولكنها ستضطر ذات يوم إلى التراجع، وعندئذ سنعود". إن هذا الوعد قد تردد وبقي حيا في الذاكرة خلال تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية. » [29].

وتمضي السنون والعقلية الجزائرية تتطور مع كل حدث تمر به البلاد؛ وتأتي الحرب العالمية الأولى لتضع موازينها ومعاييرها، ويزّج بالفرد الجزائري في تلك الحرب وهو لم يكن صانعها، وعند النظر من بعيد، نجد أن عقد العشرينيات من القرن العشرين، كان من أكثر العقود حسما في تاريخ الجزائر. فعلى الرغم من أن الحرب لم تحضر أي حل للمشاكل الجزائرية، فإن أحداث الحرب ونتائجها قد أثرت في كل مظهر من مظاهر الحياة تقريبا في الجزائر[30].

حدث بفضل هذا الالتقاء احتكاك بين عقليتين، وكان فعل الاستفادة والتعلم محققا من قبل الجزائريين، وهكذا راحوا يستعملون المقارنات بين وضعين؛ وضع يعيشونه داخل الحرب، ووضع مترسب داخل الذاكرة التي تحتفظ بكل أشكال الإهانات التي تمارسها السياسة الفرنسية الاستعمارية في الجزائر؛ وبذلك لم تذهب مشاركة الجزائريين في الحرب مع فرنسا من دون مقابل؛ وإنما مثّلت مدرسة أنتجت إحساسا بالزمن من جهة، وتكوّن شعور اليقظة ومحاولة التغيير من جهة ثانية. « ومن

الأفكار الهامة التي تعلمها الجزائريون من الحرب فكرة المساواة، فقد كانوا سمعوا عن هذا المبدأ ولكن لم يمارسوه أبدا. وسواء كانوا جنودا أو عمالا، فإنهم لم يتمتعوا فقط ببعض المساواة مع الفرنسيين، ولكنهم أيضا رأوا تطبيق مبدأ المساواة بين المواطنين الفرنسيين أنفسهم. وهذه الحقيقة ستجعلهم كثيري النقد للطريقة الفرنسية في الجزائر عندما يعودون إلى وطنهم.»[31].

ونضيف إلى هذه الفائدة التي جناها الشعب الجزائري من الحرب قضية تَشكُّل الأحزاب السياسية التي تعددت مشاربها؛ فراح كل منها يطالب بطريقته الخاصة، ويبني استراتجيته من منطلقات عقيدية، فوجد بعد ذلك المصفق المؤيد، والمعارض الناقم. ولئن كان الاختلاف باديا بين تلك الاتجاهات إلا أن أغلبها كان يلتقي في مطالب عديدة، تتمثل أساسا في الحق في الاستقلال، والتنعم بالحرية. إن نشوء الأحزاب كان تفاعليا في مرحلة العشرينات؛ فقد أوجد ذلك الظرف التاريخي الاتجاه المحافظ الذي تزعمه مجموعة من الإقطاعيين الذين خدموا فرنسا، ووُجد أيضا الاتجاه المعتدل من قبل النخبة التي انقسمت سنة 1919، ووُجد الاتجاه الليبرالي يضم القسم الثاني من النخبة المنقسمة. ثم الاتجاه الإسلامي العربي الذي تزعمه العلماء[32].

بالإضافة إلى أن هناك مدا شيوعيا واشتراكيا في ذلك الوقت، خيم على الكثير من الاتجاهات السياسية الدولية؛ خاصة وأن نتائج الثورة البلشفية كانت بادية للعيان، واستطاعت في ذلك الوقت أن تكسب الكثير من المؤيدين المخلصين والداعين إلى تبني الفكرة الشيوعية التي تدعو إلى الثورة وكسر الاستغلال والإقطاع. وتكوين مجتمع لا تسوده الطبقية ولا يحكمه القوي على حساب الضعيف. إذا، فمن « بين جميع المذاهب الجديدة التي تسربت إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، كانت الشيوعية أقواها، على الأقل وإن سطحيا. والحق أن الشيوعيين والمشاغبين الفرنسيين هم الذين كانوا مسئولين على إدخال الفكرة الشيوعية إلى الجزائر. وهناك أحزاب وجماعات فرنسية أخرى جاءت بالاشتراكية، والفاشية، والإنسانية.»[33].

ولعل شغب هؤلاء الشيوعيين كان مبالغا فيه، وكان يمتلك بعض القدرات التي أهَّلته لأن يسيطر على عقول الشباب الجزائريين « وكان الحزب الشيوعي الجزائري يتسم بالقوة نتيجة المساندة التي كان يلقاها من نظيره الحزب الشيوعي الفرنسي. هذا الحزب الذي وصل تعداده مليون منخرط، وأكثر من خمسة ملايين ناخب، و166 نائبا في الجمعية الوطنية الفرنسية. الذي كان يعتبر نفسه حاميا للاتحاد السوفياتي، لانتصاره على ألمانيا النازية، ونتيجة لذلك انتشرت بوفرة أدبياته في الجزائر وكانت تستهدف – بالخصوص– الشباب المثقف. » [34].

وكان مفعول أفكارهم قويا إلى حد ما؛ ووجد في الساحة الاجتماعية من يستمع ويتقبل ثم يروج بعد ذلك « ولهذا ولع الشباب البربري بالماركسية وكذا بدستور الاتحاد السوفياتي الذي مجد نظام الجمهوريات " الإسلامية": أزربيجان. الأوزباكستان، طاجكستان، إلخ...حيث كانت تؤكد أن كل شعب وكل عرق كان يتمتع بلغته الخاصة وبثقافته ويستفيد من "الاستقلالية" في تسيير شؤونه.»[35].

ومن جهة أخرى، كان لاتصال علماء الجزائر بالمشارقة الدور الفعال في تفعيل الحركة الإصلاحية، وتشكيل المنظومة الفكرية التي تسعى إلى تأسيس البناء الحضاري للأمة العربية الإسلامية من المحيط إلى الخليج. ومن ثم « فإن تعاليم المصلحين من رجال الدين في نجد والحجاز وليبية ومصر وسورية تسربت إليهم عن طريق الحج،

والرحلة في سبيل العلم، والوقوف على ثمرات المطابع. ولهذا نكاد نستشف، إلى جانب التعاليم الغربية، ملامح بارزة من تيارات نبهت الأذهان في بلدان عربية إسلامية أخرى مجاورة للجزائر أو بعيدة عنها.»[36]. وأهم التيارات الإصلاحية المتمسكة بتعاليم الإسلام التي تأثر بها علماء الجزائر: تيار (جمال الدين الأفغاني) وتلميذه (محمد عبده)، وكذلك التيار الوهابي الذي أثر في الجزائريين عن طريق الحج. لذلك راحت جمعية العلماء المسلمين في مسيرتها الإصلاحية تدعو إلى تكريس الدين الصحيح- لأن فرنسا حاربته بكل ما تملك من وسائل- وكذا محاربة الطرقية؛ لأنها تدخل الدين في متاهات الخرافة، والدجل، والدروشة...ومن ثم كانت الأسس التي انبنت عليها جمعية العلماء المسلمين : هي أن الإسلام يمجد العقل، ويعدل بين الناس، ويتعايش فيه الفقير والغني [37].

لقد تباينت الطروحات بين مختلف التيارات الإصلاحية والوطنية والنخبوية. فالإصلاحي كان يعمل لتمكين الشخصية العربية للجزائر، والوطني لترسيخ فكرة الاستقلال والتنعم بالحرية (الحركة الإصلاحية أيضا كان هدفها الأعمق هو الاستقلال عن طريق العودة إلى مكونات الذات الوطنية وهي اللغة والدين والتاريخ)، والنخبوي المطالبة بالمساواة مع الفرنسيين والإدماج ...إلى غاية الثورة المسلحة التي جاءت نتيجة مخاضات كبيرة ومتواصلة في الزمن، تأسس قبلها وعي ثوري.

لقد عُدَّ الإمام (عبد الحميد بن باديس) ركنا ركينا في التأسيس الفكري الإصلاحي الجزائري، وكان عقله يتغذى من معظم التيارات الفكرية الدينية المناهضة للاستبداد، وقد « سبق ظهور حركة الشيخ عبد الحميد بن باديس الإصلاحية قيام حركة جمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده ورشيد رضا في الشرق الإسلامي، وحركة خير الدين التونسي في تونس، وعاصره في الجزائر الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ الطيب العقبي والشيخ عبد الحميد بن سماية والحاج حسين الطربلسي، وفي تونس عبد العزيز الثعالبي والبشير صفر وعلي باش حامبة والطاهر بن عاشور» [38].

وعلى هذا الأساس تبلورت فكرة التأسيس لمدرسة إصلاحية جزائرية، تسعى إلى استعادة مقومات الشخصية الوطنية وفق أصل عربي مسلم ضارب ممتد في التاريخ إلى جذور أمازيغية. ووفقا لهذا كان «الشيخ عبد الحميد بن باديس مؤسس النهضة وحركة الإصلاح في الجزائر، هو رجل الحوار دون منازع، وظهر في وقت استكمل فيه الاستعمار الفرنسي قبضته الحديدية على البلاد والعباد، ماديا وأدبيا، وتصور مخطئا أنه تجاوز بصفة نهائية في هذه البلاد. وقد تزامن ظهور ابن باديس مع ظهور طلائع الهيئات والحركات السياسية والوطنية الجزائرية، بدءا بجماعة النخبة (1912)، ودعاة التجنيس(1919)، ونجم شمال إفريقيا (1926)، وكتلة النواب المنتخبين(1931)، وهيئة المؤتمر الإسلامي (1936)، إلى حزب الشعب الجزائري(1937)» [39].

وتجسدت الرؤية الإصلاحية في الشعار الكبير الذي بات يردده كل جزائري مؤمن بقضية وطنه، وهو:الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا. وذلك للرد على محاولة إذابة الجزائر في فرنسا. والوقوف سدا منيعا أمام كل الأصوات التي كانت تحاول تقزيم فكرة الوطن، والانتماء إليه، فكان الشيخ يقارع الحجة بالحجة، ولا يفوتنا في هذا المجال أن نتعرض، ولو بإيجاز إلى المقولة الشهيرة التي صدرت عن عباس فرحات: «الوطنية هي ذلك الإحساس الذي يدفع بشعب ما أن يعيش داخل

حدوده الإقليمية، وهو الإحساس الذي خلق هذه الشبكة من الأمم، ولو كنت اكتشفت الأمة الجزائرية لكنت وطنيا، ولن أخجل من ذلك كما يخجل (أي أحد) من جريمته، فالرجال الذين ماتوا من أجل المثل الوطني هم يوميا مكرمون ومبجلون ومحترمون، وليست حياتي أهم من حياتهم، ومع ذلك سوف لن أموت من أجل الوطن الجزائري، لأن هذا الوطن غير موجود ولم أكتشفه، وقد سألت التاريخ، وسألت الأحياء والأموات، وزرت المقابر، ولم يكلمني أحد عنه»[40].ويرد ابن باديس: «إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ، وفتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل العمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها، وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح، شأن كل أمة في الدنيا...»[41].

ولكن قوة الفكرة، ورجاحة العقل، والاستماتة في الدفاع، ومغالبة الخصوم، جعلت ابن باديس ينتصر في استمالة فرحات عباس، والعدول عن رأيه الأول «وما كان من صاحب ذلك التصريح العجيب الغريب المشار إليه آنفا السيد فرحات عباس، إلا أن عدل عن رأيه وكان له من الشجاعة ما دفعه إلى الصدع بوجه الحق، فزار في هذا الشأن ابن باديس في مكتبه بإدارة (الشهاب)، واعترف بالحق بين يديه، ثم ترجم هذا التغيير الذي انتهى إليه في موقفه في مقال نشره بجريدة (الدفاع) للعمودي وعربته الشهاب. وصار هو وبعض من جماعته يسيرون في الخط الوطني الصحيح»[42].

وما نود التأكيد عليه في هذه العجالة، هو أن مرحلة ما بين الحربين، أفرزت وعيا حضاريا لدى الجزائريين، أهلهم لأن يقودوا سنة 1954 ثورة؛ عُدَّت من أعظم الثورات في العالم. وأشع نورها على مختلف الشعوب المقهورة في مختلف الأقطار. كما أننا لا نستثني البعد العروبي لها؛ إذ أججت مشاعر العرب وخاصة الأدباء، فراحوا يمجدون مآثرها، ويتغنون ببطولاتها. وسنسعى في العنصر الموالي إلى تتبع آثار الدلالة البطولية من منظور سيميائي.

2- سيمياء الانتماء:

1 - الإيقونة البشرية الصامدة:

يشكل السياق الثوري منطلقا تعبيريا لمدونتنا الموسومة بـ : الثورة الجزائرية في الشعر العراقي. ويمكن لهذا العمل الذي قام به الباحث عثمان سعدي أن يحتمل عنوانا كبيرا هو: مآثر وبطولات ثورة الجزائر. وهذه البطولات جسدها - ميدانيا- عديد من الثوار الجزائريين الذين اكتسبوا وعيا ثوريا، أهلهم إلى خوض غمار حرب مفتوحة على كل الاحتمالات. وكان الإحساس بالقضية هو المحك الذي وحّد الصفوف، وفعّل الجهود وضاعفها. ولعل تصفح هذا الكتاب الذي بين أيدينا يحيلنا على جملة من المعطيات الثورية التي آمن بها الشعب الجزائري، وهي:

- فرنسا لا يمكن أن تكون صانعة وحاملة للحضارة؛ لأن فعلها فوق الميدان ينفي ذلك.
- الإرادة والصمود هما الحل؛ لأن قوة فرنسا وعتادها لا يمكن مقارنته بما عند المجاهدين الثوار.
- حب الوطن أنتج فكرة التضحية بالغالي والنفيس في سبيل التحرير.
- شعبية الثورة التحريرية؛ إذ عمّت كل فئات الشعب الجزائري.

وفي نطاق هذا الطرح، تبرز أمامنا فكرة الانتماء كبعد دلائلي مهيمن على جل النصوص الشعرية المبثوثة في هذا الكتاب. وسيكون هذا المنطلق هو لب ما ننشده في تحليلنا لهذه النصوص سيميائيا.

وإضافة إلى هذا فإن صفحات هذا الكتاب، تحاول تجسيد الفعل الثوري لدى بعض الشخصيات التي كان لها فضل الإرادة والصمود. في الثورة التحريرية المباركة، وهذه الشخصيات هي:

- جميلة:

لعل شخصية جميلة بوحيرد، تعد إحدى الشخصيات التي صنعت حكاية الثورة التحريرية المباركة. وتتحرك هذه الشخصية داخل نصوص الشعر في سياق الانتماء للوطن؛ من خلال نزعة الصمود، وقوة الممانعة. يقول الشاعر العراقي (شفيق الكمالي) :

جميلة اللبوة الجريحة
تفتر فوق ثغرها ابتسامة
كأنها تقول
لتشرب السياط من دمي..
ليرتوي الجلاد
دروبنا قتاد
زيتوننا بنادق ونخلها رماح
وخلف كل صخرة سنان
يا أنت يا سجان
يا حامي الحضارة العتيده
حضارة القرصان
حضارة الخنجر
الشعب لن يقهر [43]

تتحسس لغة النص إشارات لغوية دالة على التحدي والانبثاق من ركام الموت والدمار. ولعل تلك الإشارات تتشكل وفق سياقات المجابهة لعدو عتيّ. وتكون صورة جميلة هنا، (إيقونة) تدفع عن نفسها الضيم، وتعانق السياط، لتقهر في الأخير حضارة الخنجر والقرصان. ويمكن أن نترصد، إشاريا، تلك العلامات الدالة على الصمود، وهي: الزيتون – النخل – الصخر – السنان. فعالم الأشياء هنا، هو عالم يتسم بالمقاومة، والاستبسال، والقدرة على الاستمرار. لأن الزيتون يحافظ على خضرته على مدار العام، ويأتي بأكله في كل حين. والنخل، يبسق جذعه، ويعلو على كل مظاهر القحط والجفاف، ويأتي أيضا برزقه، لينتفع به الناس، في بيئة قاحلة. والصخر، هو عنوان الصمود، والشدة، والقهر. فهو الجبل الذي تتكسر على قدميه أمواج البحر العاتية، وهو الحصن الحصين الذي يصد الريح العاصفة، وهو وتد الأرض الذي يحقق لها استقرارها، واتزانها. وأما السنان فهي الحراب التي تصون العرض، وتحمي النفس من بطش العدو، وهي رمز القوة. ويمكن من خلال هذه القراءة الإشارية أن نتحسس عالمين متقابلين في هذه الأشياء: عالم أخضر يتشكل من الشجر. وعالم يابس يتشكل من الصخر والسنان. وهما عالمان متكاملان يصنعان سياق التحدي، مثلما أشرنا آنفا.

ويمكن أن يتكامل هذا المقطع مع آخر، يصف صمود جميلة. إذ يقول الشاعر:

ولكنها بنت الجزائر حسـبُها ... بطولتها تُردي الخميس المـدرَّبا
سمت فوق طاقات الرجال فلم تهن ... أمام عذاب يترك الطـفل أشيـبَا
إذا الروح لم ترض الهـوان فإنَّما ... يُعـذَّب هذا الجسم كي لا تعذبا
جميلة نام الكون حولي ولم أنـم ... وكيـف لمثلي أن ينام ويلـعبا[44]

والأبيات تروي ملحمة بطولية لهذه المرأة الجزائرية، التي فاقت بطولاتها طاقات الرجال. والتشكل العلامي لهذا المقطع يصب في السياق نفسه، ويعزز كلامنا المقطع (بطولتها تردي الخميس المدربا)، وهي إحالة على الجيش التقليدي المعروف ببنيته التخميسية، وهي الميمنة والميسرة، والمقدمة والمؤخرة والقلب.

والأمر نفسه، يكاد يكون في قول الشاعر (علي الحلي) من قصيدة (من جميلة بوحيرد إلى نادية السلطي):

عبر بوابة سجني
من هنا، من أرض وهران الحبيبه
من سياط النار تحتاش قرانا
وتذريها على أفق الفناء
من ينابيع الدم النزّاف، من فجر العروبه
من ذرى الأوراس، من أرض البطوله
لرفاق الشمس في درب خطانا...
لجموع الشهداء
لك، يا نادية الخلد...أغني
عبر بوابة سجني
من أنين السجناء
لك أغرودة حب وتحيات طيبه
أنت مني..
لن تموتي
خلف أسوار الصمود [45].

وتخرج أصداء الثورة والصمود من دائرة إلى دائرة أوسع، وهو وصول الصوت الثوري الجزائري إلى خارج الحدود، وبالتحديد إلى الوطن العربي. وبشكل أخص فلسطين المحتلة. وعلى ذلك، تحاول إشارات النص التفاعل مع المشهد الفلسطيني الذي لا يقل احتراقا عن المشهد الجزائري. وتطفو على جسد النص شخصية مناضلة (هي شخصية نادية السلطي). وتسعى كل شخصية إلى أن تطرح فعلها وصمودها بشكل يليق بحجم القضية. ويتحول مشهد المأساة المرعب إلى احتفال، والأنين إلى غناء (من أنين السجناء/ لك أغرودة حب وتحيات طيبه). وفي تماثل المشهد الجزائري مع المشهد الفلسطيني. يحتمل خطاب النص دلالة الرفض، وعدم الخنوع والاستسلام، ويتجلى الأمر في سياق النفي (لن تموتي).

- **العربي بن مهيدي:**

وهو أحد أعظم قادة الثورة الجزائرية، عرف بقوة العزيمة، وشموخ الهمة، وصلابة الإرادة. ويضرب به المثل في القدرة على التحمل، والصبر. وذلك لما لاقاه في سجون الاحتلال، من أبشع أنواع التعذيب، والتنكيل. وتتشكل هذه الشخصية داخل تراكيب النص الشعري الذي أمامنا، بلغة تحتمل سياقات الثورة، والحركة، والتجدد. يقول الشاعر العراقي (عبد الوهاب البياتي):

كان في نافذة السجن مع العصفور يحلم
كان مثلي يتألم
كان سرا مغلقا لا يتكلم
كان يعلم:
أنه لا بد هالك
وستبقى بعده الشمس هنالك
في ليالي بعثها، شمس الجزائر
تلد الثائر في أعقاب ثائر [46].

يتناسق هنا صوت العصفور، مع صوت السجين (العربي بن مهيدي) في زنزانة واحدة. ويبدو الحلم كصرخة سجينة، تتطلع إلى أفق أجمل؛ فالعصفور يطلب دوما حريته، وكذلك هذا الشهيد الذي يعلم بأنه لا محالة هالك، وبرغم ذلك ينشد غده وحريته. ثم بعد ذلك يتبدد الحلم، ولكن يتشكل سياق التجدد

والاستمرارية، ويتحرك النص باتجاه المستقبل (تلد الثائر في أعقاب ثائر).

- **عميروش:**

وهو أحد كبار الثوار الجزائرين، لقبه الاحتلال الفرنسي بـ(ذئب الجبل) لقوة فراره من الحصار. وقد تشكلت صورته شعريا في قول الشاعر العراقي (كاظم جواد):

مات وفي عينيه شيء من لهيب المعركه
مات ووهران سماء لم تزل محلولكه
الخوف، والطاعون، والحصار، والمآثم
والليل، والفئران، والحديد، الشراذم.
مات على السفح، وحيدا، يحضن البريق
في مقلتيه، يسكب الحريق
من شفتيه، مات في الطريق
يحلم بالجبل
والشمس، والنسور، والسلاح، والعمل
عميروش
عميروش
هل تسمع الجيوش؟
تهبط من معاقل الأوراس والتلول
لتزرع السهول
بديل كل جزمة وقنبله
شجيرة وسنبله...[47]

إن صورة البطل (عميروش) تتأسس على تشكيل علامي سيميائي، يتأرجح بين ثنائية الموت والحياة. فالنص ينطلق من العلامة السيميائية، والتي هي إشارة عائمة(مات)، ثم ينتهي بالعلامة (سنبلة) والتي تحتمل معنى الحياة. ومن هنا، تتبني التراكيب في معظمها على سياق الموت. وهو المعبر عن الوجه الحقيقي للاحتلال. ويرمز له بـ : الخوف – الطاعون – الحصار– المآثم – الليل – الفئران – الحديد – الشراذم. وهذه العلامات تصنع عالما موبوءا، همجيا، بعيدا عن الحضارة المزعومة التي تغنى بها الاحتلال الفرنسي. وتبدو أقرب إلى عالم القذارة؛ لأنها مقرونة بالفئران، والطاعون. وفي سياق الحياة، تلتئم علامات دالة من مثل: الشمس – النسور – السلاح – العمل. وبين هاته الموجودات، ترتسم صورة البطل (عميروش) كنواة في النص ككل، وهي: (يحلم بالجبل).

2 –الإيقونة المكانية الصامدة:

تتمثل في تأسيس دلائلي يقوم على استحضار المكان بوصفه حمولة معنوية ترتبط بسياق معين، يسير في المنحى الدلالي العام للنص. ومن بين الأماكن التي وظفت وفق هذه الكيفية:

- **الأوراس:**

وتتمظهر هذه الإيقونة كرمز للانتماء إلى الأرض، بوصف الأوراس قلعة الثورة التحريرية المباركة. فأضحت مكونا شعريا. يصنع وجوده الدلالي في انسجام تام مع الرؤى الشعرية، التي تسير في منحى الثورة. يقول الشاعر(عبد المحسن عقراوي):

حُيّيتَ يا شعبَ الجـــــزائر — حُييت يا رمز الــمفاخر
بوركت من بطل تحـــــدى — كل سفاح وغـــــــــادر
يا صرخة الزحف المقدس — زمجرت عبر الحنـــاجر
أوراس يا رعـــــــش الدم — الدفاق خضب كل ثائر
دقت نواقيس الفـــــــداء — فعطري حولي المشاعر
وتهللي – فالفجر يـــملأ — أفقنا الدامي بـــــــشائر [48]

وتبدو دلالة الشموخ بشكل جلي في هذا المقطع. وذلك من خلال التركيب: (أفقنا الدامي بشائر). وسياق الشموخ و الرفعة تحتمله كثير من المقاطع الشعرية في نصوص أخرى من مثل قول الشاعر (علي الحلي):

في ذرى الأوراس والأفق دم تتشظى الأرض عبر العـــــدم
وزئير السفح من تكبـــــيرنا يشرب الصـــــمت بوادي الرّمم
كم صحا الرمل على أقدامنا وسرى في الغاب رجع الصمم
نحن لبينا الصدى فانتفضت في ربى الشرق سرايا الحـــــرم (49)

فالعلامة السيميائية (ذرى) تتردد كثيرا في المقاطع التي تضم (الأوراس). وتسير حركية المقاطع، وفق هذه الرؤية، نحو العلو. وتشفع لنا العلامات: صحا – انتفضت – الأفق. ومن هنا تتجلى رؤى الطموح إلى الغد، والإحساس بالمستقبل الذي تجسد فيما بعد في الاستقلال.

- **وهران:**

وهران هي إحدى كبريات المدن الجزائرية الواقعة غربا، وكان لها صولات، وجولات في حرب التحرير المظفرة. وتتكرر بشكل جلي في النصوص الشعرية المبثوثة في مدونتا. ولعل السياق الدلالي الذي يشكلها، يتمحور أساسا في انتمائها إلى معسكر الثورة. يقول الشاعر (مثنى محمد نوري) :

وهران..والأرض الخضيبة بالدما والقابضون الأجر في خسران
أقسمت بالزحف المقدس هادرا بالعزم نفني دابر العـــــدوان
بالمارد الجبار يزهو شـــــامخا لا يستكين لذلة وهـــــــوان
بجراح من حمل الرســـالة ثائرا مستهزئا بالنار والصلبـــــان
نذر الحياة رخيصة لـــــــبلاده وشدا على وتر الجهاد الفـاني
بالسائرين جحافلا مرصـــوصة والثائرين على الدخيل الجاني
أنّا سنبعثها غدا مـــــــــوارة بالحق تظهر روعة الإنســـان
أنّا هنا في النائبات يشـــــدّنا نحو العلا أمل عظيـــم دان
قسما بمسفوك الدماء بـــتربة عربية تاهت على الأزمـــان
يحدو بها للنور جيل صـاعد لله سحر شبابه الفتـــــــان
ألق الجبين على شفاهه غنوة هي صبوة ما بعدها مـــن ثان
متوثب تخذ النضال سجـــية غراء يوم كريهة وطـــــعان
وشدا وآمن بالعروبة مـــذهبا ورسالة تسمو عن التـــبيان
لا بد يبدو فجر عهد مـــشرق ويزول عهد الظلم والطـغيان (50)

ساهمت وهران مساهمة فعّالة جدا في حرب التحرير الوطني؛ حيث ارتبط اسمها بكثير من الزّعماء والأبطال مثل الشّهيد "حمو بوتليليس " وذبيح المقصلة " أحمد زبانة "، و" الحاج بن علاّ " وغيرهم ... علاوة على إيوائها للكثير من الزّعماء الوطنيين الذين كانوا يُحضّرون لثورة التحرير مثل اجتماع مجموعة (22) في بداية نشاطها، كما أن عملية البريد المركزي في مدينة وهران التي قام بها الرئيس (أحمد بن بلة)، ورفاقه معروفة عند العام والخاص، كما سجل العمل الفدائي من أجل تحرير الوطن مجموعة كبيرة جدا من الأبطال الذين سجّلوا أسماءهم بأحرف من ذهب على مذبح الحرية والفداء. إضافة إلى البعد التاريخي والحضاري لهذه المدينة، خاصة في الفترة العثمانية، والاحتلال الإسباني. ولا يمكن أن نغفل عن سجنها الحربي، الذي كان يأوي فيه المناضلة (جميلة بوحيرد). فلقد سجنت في 1957، وزج بها في ذلك السجن. ولعل هذا الصيت الذي اكتسبه، انعكس على مدينة وهران؛ فتحولت إلى رمز للصمود والمقاومة. ويبدو المقطع الذي أمامنا محملا بتلك الدلالات التي تسير في تحقيق الانتماء للثورة، والوطن، والقضية.

3- سيمياء التضاد:

أ -الإيقونة البشرية الحاقدة:

- **ديغول(Charles de Gaulle):**

تبدو شخصية ديغول الصورة المثلى لهذا النموذج، حيث تتكرر في كثير من المواطن، ومن شعراء شتى. فالصورة المرتسمة في الأذهان هي صورة متوحشة، بعيدة عن أخلاق الإنسان. يقول الشاعر:

على صخرة القـــــــــــوة الثائرة ستـــنهار أحلامك الغادره
ورغم قنابلك المـــــــــــحرقات ستجتاحك الثورة الظافره
ستطويك حتما ستقضي عليك وتلـــهمك الموجة الهادره (51)

في سياق الفعل، ورد الفعل، تصطدم قوة (ديغول) بقوة الفعل المقاوم، ثم ينهار في الأخير؛ لأن إرادة الشعوب لا تقهر، وأن الثورة الحارقة ستجرفه، وتطويه كما يُطوى السجل. وهذه الصورة تتكرر كعلامة سيميائية كبرى داخل النصوص، والتراكيب الشعرية. ففي نص آخر، يقول الشاعر:

أيظلُّ (ديغول) الغرير بطيـــشه ثملا يتيه صفاقة وعـــــماءا
ويريم عما جـــــــاء في انجيـــله من ألفة يمحو بها البغضاءا
ويبث آيات الوداعة والصـــــــفا بين الشعوب وداعة وصفاءا
ديغول يا أعمى البصيرة والحجا وأحط من لفظ الزمان وقـــاءا (52)

وتنعت هذه الشخصية بأقبح الصفات، ولعل في هذا الوصف إحالة على فكر هذه الشخصية التي جاء بها المحتل بعدما يئس من إطفاء لهيب الثورة. فأراد به أن يكون سلاحا آخر، يحاول استمالة عقول الشعب الجزائري وعواطفه إلى المهادنة، وعدم المجابهة. لأن فرنسا تريد الخير – حسب زعمها –

للشعب الجزائري، وتريد أن تبني له حضارة وتَمَدُّنا. فتتركب علامات النص وفق سياق مغاير لذلك، فـ(ديغول) العاقل، والفطن، هو ثمل مغرور تائه، وأعمى البصيرة. وتتمو هذه الصورة بشكل متواصل؛ إذ يقول شاعر آخر وهو (طارق الطاهري):

وديغول السفيه غدا رئيـــــسا لذؤبان مخنثة..قـــــــــــــباح
بهم يسطو على دول ضعاف ويجأر بالسلام على انفـــضاح
فلا تثقوا بـــــــــمؤتمرات زور فليس بها سوى حر النـــــــباح
فلا تثقوا بأقـــــــــوال كذاب فليس لكم سوى حمل الســـــلاح (53)

فالرئيس سفيه، والمرؤوس ذئب قبيح مخنث. لا تنفع معه دبلوماسية، ولا مؤتمر. وفي الأخير لا يكون الحل إلا برفع السلاح ومقاومة المحتل. فقد خدع هذا الشعب طويلا. والصورة تكتمل، بعلامة سيميائية تسير في سياق النهي (فلا تثقوا). والدلالة العميقة هي صنع وعي ثوري، لا يقبل المساومة، أو المهادنة. وتجعل المحتل بكل فئاته في كفة واحدة رئيسا لذؤبان قباح.

- **نيرون(Néron):**

تبرز هذه الإيقونة في سياق الحديث عن فرنسا، وجرائمها. والتاريخ يحفظ هذه الشخصية الحارقة، التي أشعلت روما نيرانا، بعدما كانت زاهية بحضارتها، وقوة عمرانها. يقول الشاعر (محمد جميل شلش):

يا أخت (نيرون) ما عاد الهوى حلما والوعي لفظا جميلا من رواقـــينا
ولا الخلاص مواعيدا منمـــــــــــــقة يزفها من ضفاف (السين) راعـينا
تبارك الوعي، لا حلم ولا لـــــــــغط بل ثورة تملأ الدنيا براكيــــــــــنا
إرادة الشعب فلتمحق جــــــــحافلكم وليشتعل بلظى التحرير واديـــــنا
يا أخت (نيرون) صبي النار وانتقمي واستهتري واسفحي أغلى دم فينا
قولي لطفلك نابليون: هل عــــبرت في أفقه حجرات من رواســــينا
وهل تنزت ضفاف السين وانـــفجرت باريس حقدا وضجت من سواقينا
وهل أتاها نذير الموت صـــــــاعقة من الجحيم، جبلناها بأيـــــــدينا
وهل تمخض (روسو) عن رســــالته بالأمس للناس كي تسعى ثـعابينا
مهازل يا فرنسا، أن ترى حلـــــما وخدعة وأكاذيبا تغشــــــــــــينا
ووصمة في جبين الفكر مـــــخزية بأن يداس كما ديست أمانيــــــنا (54)

إن ربط فرنسا بنيرون روما، هو تأسيس دلالي يقوم على الاستحضار، وتشابه السياق؛ فنيرون مدمر، وكذلك فرنسا. كما أن المقطع ينبني على تقابل ثنائي، أشبه ما يكون بالفعل، ورد الفعل. فهناك نار المحتل (يا فرنسا فاللظى)، ونار الثورة (الحقد نيرانا ويذكينا). ويسير في هذا السياق استحضار شخصية (نابليون Napoléon)، وهي أيضا شخصية استدمارية عنيفة، مدمرة، كادت تغزو أوربا. وترتبط بفعل التهديم (انفجرت باريس حقدا) الذي يقابله فعل الصمود (رواسينا).

ب -الإيقونة المكانية الهادمة:

تُعمّق بنى التضاد داخل تراكيب المدونة، إشكالية المصير الإنساني. فالشعب الجزائري شعب مقهور، يعيش العنف والتعسف الإمبريالي. والاحتلال يبني مستقبله على أنقاض ضحاياه. ومن هنا تسير الدلالات، وتفرز محتوياتها على باقي الأنساق الشعرية المشكلة من إيقونة دالة. فيتمظهر المكان الاستعماري كبنية حاملة لدلالات الهدم. وعلى عكس الامكنة الأولى التي رأيناها. تبرز أمامنا عدة أمكنة مضادة لها، تتحرك في سياق القتل، والموت. مثل:

- **باريس (Paris):**

باريس هي مدينة الجن والملائكة، وهي عنوان الحضارة والتمدن. ومن يزورها سيفتتن بها. هكذا صُدرت هذه الصورة إلى مختلف أنحاء العالم. ولا ينكر أحد مدى تطورها وحضارتها. ولكن هذه الصورة اهتزت في الوجدان الجزائري بفعل همجية الاحتلال الفرنسي. وبإطلالة على الأشعار المبثوثة في تفاصيل مدونتنا، ندرك بقليل من الجهد، أن صورة فرنسا هي دلالة على التوحش، والاستبداد، والقتل، والتنكيل؛ بل إنها أشنع، وأقبح من ذلك في بعض الأوصاف الشعرية. فهي بلد أمة القردة، والدعارة، والتخنث، والبغاء. وفي مقابل هذا، تتبدى صور التضحية، ودلالات الاستماتة، لدى الجزائريين. يقول الشاعر(عبد الخالق فريد):

أغلمان باريس يا بـــــــــــاقة	**تمنيتُ واخـــجلةَ القافـــيه**
مخانيثُ أهواؤهم كالنـــــــساء	**وأمهم قردة زانيــــــــــــــــــه**
تبيع هواها لمن يبــــــــــتغيه	**وتمنح لذاتها الواطيـــــــــه**
تمتع، تمتع، فهذا الشبــــــاب	**يدب سريعا إلى الهاويـــــه**
تمتع فديتك من فــــــــــارس	**يداعب في الليل أحـلاميه**
فيهتف عاشقها بازدهـــــــاء	**فديتك سنيورتي الغـــــاليه**
فديتك يا قطة حـــــــــــلوة	**أرتني السعادة في ثانـــــيه**
لكم شاقني أن أبث الشعور	**ولكنها عفة باقـــــــــــــيه**
تظل تعذبني لحـــــــــــظة	**فأكفر القيم البالـــــــــــــيه**
أيطمح في أرضنا أمـــــــرد	**عبادته لذة باغيــــــــــــــه**
ونحن الأُباة رعاة الذّمـــــــار	**جباه النجوم لنا دانـــــــــيه** [55].

يتأسس المقطع على بنى متضادة. البنية الأولى تشكل صورة باريس؛ المدينة الغارقة في الدعارة، والزنا، واللذات. وهي منظومة قيمية مغايرة لأرض الجزائر، بشعبها، وثوارها، وقضيتها. فـ(غلمان باريس)، تقابلهم – كبنية مضادة – (نحن الأباة). و(اللذات الواطيه)، تقابلها (جباه النجوم). ومن هنا، تسير علامات النص وفق هذا الخط الدلالي، الذي يثبت صدق قيم الشعب المظلوم، ودناءة المحتل، ورعونته، بل وتفاهته، وخيبة مسعاه. ويأتلف هذا المقطع مع مقطع لشاعر آخر، هو (هادي كمال الدين السيد) :

باريس يا أم الخلاعة كفـــــــــكفي — من التيه، آبار الزمان عمـــــــــاق
فقد تُقطف الأزهار وهي غضيضة — وقد يدرك البدر المشع مـــــحاق
كذبت بتحرير الشعوب دعـــــــاية — وأخرى بوجه الكاذبين بُـــــــصاق
أحرية فيما تبجحت باطـــــــــــلا — وفي جورك الوحشي ضاق خـناق
إذا ما ادعاء الخير جاء مبـــــاينا — لماهية الأفعال، فهو نفـــــــــاق
دموع على المجد المُطاح مــُذالة — وزاكي دم بالمرهفات يُـــــــــراق
فلا بد يا باريس من يوم نـــصرنا — فتيار هذا السيل ليس يُـــــــعاق
وهي تباشير النجاح مشـــــــــيرة — بأن وشيكا أن تُحلّ ربـــــــــاق (56).

وهي صورة باريس المشوهة. وإن التركيز عليها. نابع عن كونها هي العاصمة، ولكثرة تغنيها بشعارات الحرية، والأخوة، وحقوق الإنسان. ولكن في هذا المقطع، هي (أم الخلاعة)، وهي حضارة (الكذب والنفاق)، وهي مدنية (التوحش). وفي المقابل يبرز (الدم الزكي) كمكون سيميائي، يحتمل شرارة الثورة، وفعل الصمود، والمكابرة، ومنه تأتي (تباشير النجاح).

- **السين (La Seine) :**

نهر السين هو أحد مفاخر فرنسا، هو عنوان الحياة؛ لأنه يزخر بوفرة المياه، وحيوية الحياة، وجمالها، ورونقها. فكل فرنسي يستشعر في ذاته إحساسا بالانتماء لهذا النهر، فهو فرنسا، وفرنسا السين. ولكنه في ذهنية كل جزائري، وعربي، هو رمز الموت، والخراب، والدمار؛ لأن آلاف الجزائريين رُمي بهم فيه أحياء أثناء مظاهرات المطالبة بالاستقلال في أكتوبر 1961. ومنه، فلونه أسود في مخيلة الجزائري. وكان إيقونة سيميائية داخل كثير من النصوص الشعرية التي تعبر عن فظاعة ذلك النهر الكبير، وحضارة فرنسا. يقول الشاعر العراقي (عبد الله الجبوري) :

يا زمرة السين لـــــقد — أدميت قلب العــــرب
لا بد من شــــــفائه — بهمّة لم تُغلــــــــــب
يا أمتي لا تــــــهني — نور الهدى لم يغرب
لا بد يا خصومــنا — من هوة المنقـــــــلب (57).

تنسب حضارة فرنسا هنا إلى العلامة السيميائية (زمرة السين). فتصبح هي سبب الجرح. ويتأسس المنحى الدلالي في مقطع شعري للشاعر (محمود البستاني):

يا ابنة السين فاقبعي دمية خرساء، خلف الدجى السحيق البالي
واندبي مجدك المكفّن بالعار، تشكّى، إلا من الأمـــــــــــــحال
وتعرّى كهيكل – ثَمَّ – مهجور، على خربة من الأطـــــــــــلال
ضجّ من نتن خزيه، درب مسراك، غداة استقرّ في الأوحـــــال[58].

والسياق هنا، مشبع بدلالات التشوه التي تلمسناها في الإيقونة المكانية السابقة (باريس). ومن هنا تسير كل الدلالات وفق رؤية شعرية تكاد تكون واحدة عند جل الشعراء. وهذا ناتج عن وعيهم بالفعل الثوري الجزائري ضد فرنسا. فالهم واحد، والمصير واحد. والنصر في الأخير لصاحب الحق.

الهوامش

1- أحمد يوسف: السيميائيات الواصفة. منشورات الاختلاف. الجزائر. ط1. 2005. ص19.

(*) يري سعيد بنكراد في كتابه (السيميائيات والتأويل. مدخل لسيميائيات ش.س. بورس.) أن اسم Peirce يجب أن يكتب وينطق بورس وليس بيرس. للاطلاع أكثر، ينظر كتابه المذكور، ص11 وما بعدها.

2- للاطلاع أكثر ينظر محمد مفتاح. المفاهيم معالم. نحو تأويل واقعي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط1. 1999. ص79 وما بعدها.

3- سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل. مدخل لسيميائيات ش.س.بورس. المركز الثقافي العربي. المغرب. ط1. 2005. ص72.

4- المرجع نفسه. ص73/72.

5- المرجع نفسه. ص73.

6- Joseph Courtes : Introduction a la sémiotique narrative et discursive. Hachette. Paris 6e. p33.

7-Ibid. p34.

8-Ibid. p34.

9- F. De Saussure : Cours de linguistique générale. Editions TALANTIKIT. Bejaia 2000. P85.

10- Roland Barthes : L'aventure sémiologique. Edition du Seuil. Octobre 1985. p20.

11- Ibid p36 .

12- تمثل كل سيميوطيقا أو سمي (Sémie) بالنسبة للميدان السيميولوجي ما يمثله كل لسان Langue بالنسبة للغة Le language. المادة سيميوطيقا مطبوعة لدى الأمريكيين بتغيير دلالي طفيف وأيضا المادة سمة مطبوعة بطابع غير مخالف لدى (بويسنس Buyssens) ويبدو أن الأول والثاني يعنيان جوانب المجال السيميولوجي، كل المجموعات التي تمثل بالنسبة للسيميولوجي ما تمثله اللغات بالنسبة للساني. للاطلاع أكثر ينظر كتاب: برنار توسان: ماهي السيميائية. ص 38 وما بعدها.

13- برنار توسان: ماهي السيميولوجيا. ترجمة: محمد نظيف. افريقيا الشرق. المغرب. ط2. 2000. ص 38.

14- ميشال آريفيه وآخرون: السيميائية. أصولها وقواعدها. ترجمة: رشيد بن مالك. منشورات الاختلاف.دت. ص68.

15- ي.س.ستيبانوف: ما السيميائية؟ ترجمة: قاسم المقداد. مجلة المعرفة. ع235. السنة 1981. ص 57.

16- فاضل ثامر: اللغة الثانية. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب 1994. ص7.

17- أنور المرتجي: سيميائية النص الأدبي. أفريقا الشرق. الدار البيضاء.المغرب. 1994. ص 12.

18- فاضل ثامر : اللغة الثانية. ص8.

19- المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

20- المرجع نفسه. ص9.

21-ي.س ستيبانوف: ما السيميائية؟ ترجمة: قاسم المقداد. مجلة المعرفة.ع235.سنة1981. ص 54.

22- المرجع نفسه. ص: 55.

23- جوليا كريستيفا: علم النص. ت: فريد الزاهي. دار توبقال للنشر.المغرب ط2. 1997. ص 17.

24-المرجع نفسه. ص 19.

25- المرجع نفسه. ص19- 20.

26- أبو القاسم سعد الله: الحـــركة الوطنية الجزائرية(1900-1930).ج2. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط2. 1983. ص 58.

27- فهمي هويدي:عريضة اتهام مغربية ضد المشارقة. مجلة الدوحة.ع1232. مارس سنة 1986.ص11.

(*) سلامة موسى لم يكن يرى من الجزائر إلا القشرة الخارجية. والواقع أن الحركة الوطنية الجزائرية كانت في نمو وتصاعد في هذه الحقبة بالذات، منها الحقبة التي أقام المستعمر فيها احتفالات قرن على وجوده في الجزائر وتفاؤله بالبقاء الأبدي فيها، وهو ما أجج الروح الوطنية في أعماق الجزائريين، فكانت جمعية العلماء المسلمين 1931. وكان حزب الشعب1937. وقبله نجم شمال إفريقيا...

28-المرجع نفسه الصفحة نفسها.

29- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية.ج2. ص 69.

30- المرجع نفسه. ص: 299-300.

31- المرجع نفسه. ص 301.

32- المرجع نفسه. ص 305.

33- المرجع نفسه. ص 349.

34- أحمد بن نعمان: فرنسا والأطروحة البربرية. ط2. شركة دار الأمة 1997 ص 93.

35- المرجع نفسه. ص93-94.

36- نور سلمان: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير.ط1كانون الثاني (يناير) 1981. دار العلم للملايين.بيروت. ص147.

37- للتوسع تنظر مقدمة كتاب: ابن باديس. حياته وآثاره. إعداد: د. عمار طالبي.

38- يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب. الجزء الثاني. دار الهدى عين مليلة الجزائر. ص24.

39- المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

40- يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب. الجزء الثاني. دار الهدى عين مليلة. الجزائر. دت.ص26.

41- المرجع نفسه. ص27.

42- محمد بن سمينة: النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر. مؤثراتها - بداياته- مراحلها.مطبعة الكاهنة. الجزائر 2003. ص24.

43- عثمان سعدي: الثورة الجزائرية في الشعر العراقي.ج2. المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر 1985. ص9.

44-المصدر نفسه. ص170.

45- المصدر نفسه. ص205.

46- المصدر نفسه. ص151.

47-المصدر نفسه. ص246.

48-المصدر نفسه. ص142.

49- المصدر نفسه. ص180.

50- المصدر نفسه. ص289/288.

51- المصدر نفسه. ص22.

52-المصدر نفسه. ص25.

53-المصدر نفسه. ص51/50.

54- المصدر نفسه. ص305/304.

55-المصدر نفسه. ص 82.

56-المصدر نفسه. ص439/438.

57-المصدر نفسه. ص136.

58-المصدر نفسه. ص366.